ع . ع . محمد

يعرب لك

الفاعل والمفعول

الفاعل والمفعول

الفاعل والمفعول

عبد الهادي عاصم محمد

٢٠٢٣
نشر إلكتروني / قصة قصيرة / إثارة

الفاعل والمفعول

طالع القاضي الأوراق أمامه وقال دون أن يلتفت:

- "هاني محمد عبد التواب"

أجبتُ من داخل القفص:

- "حاضر"

التفتَ إليَّ وقال وهو ينزل نظاراتيه عن عينيه متفحصا:

- "لماذا رفضت توكيل محامٍ للدفاع عنك؟"

قلتُ بهدوء:

- "وماذا سيفعل المحامي؟ إنها جريمة قتل من الدرجة الأولى وهناك عشرات الشهود"

نحبت إحدى السيدات باكية فربت زوجها على كتفها وهو ينظر نحوي بحقد. سأل القاضي وهو يقلب في الأوراق للمرة الأخيرة قبل أن يزيحها جانبا:

- "أنت ترغب بالدفاع عن نفسك؟ هل أنت محامٍ؟!"

- "ليس دفاعا، بل هو أقرب إلى بيان، كما أنني لست محاميا ولا أفقه شيئا في القانون"

قال القاضي يائسا:

- "إذن أسرع، وهات ما لديك، فوقت المحكمة لا يتسع!"

- "سيدي القاضي، حضرة السيدين المستشارين"

نظر إليَّ باستغراب، فقلت:

- "لقد قضيت شهورا طويلة أتعلم اللغة العربية على اليوتيوب... غريبٌ هو كمٌّ العلم الذي يمكنك أن تتحصل عليه وأنت لا تفعل شيئا في حياتك سوى الانتظار"

- "هل ستتقدم بدفاعك؟ أم نؤجل القضية؟"

- "نعم، لكنه بيانا وليس دفاعا a statement not a defense؛ لقد درست الإنكليزية أيضا"

أخذت نفسا عميقا، ثم بدأتُ بالكلام؛ لقد بدأ الأمر يوم عيد ميلادي الثلاثين؛ هنأتني إحدى زميلاتي، ثم سألتني:

- "ألن تتزوج؟"

- "تعرفين أني أبحث عن صفات معينة في الفتاة التي سأربط حياتي بها، حتى لا تحدث بيننا مشاكل بعد الزواج"

- "وما هي تلك الصفات المعينة التي تبحث عنها؟"

- "فقط فتاة تشبهني..."

أخبرتها عن الصفات السطحية التي كنت أبحث عنها في الفتاة.

ضحكت مقهقهة ثم قالت:

- "أعتقد أن لديَّ واحدة لك؛ جارتنا التي انتقلت مع أسرتها للسكن في بيتنا الشهر الماضي؛ هي تماما كما وصفت، لماذا لا تذهب إليهم؟"

في خلال يومين فقط، كنت جالسا مع أبيها، فسمع مني ثم قال:

- "للأسف ابنتي الآن في عامها الثاني الجامعي ولن أفتح موضوع الزواج إلا بعد أن تتخرج"

رفض حتى أن يخبرها بأمري، أو يسمح لي بمقابلتها، لكنني كنت قد رأيتها بالفعل تخرج من البيت، قبل أن أجلس مع أبيها، وازددت تعلقا بها، ولسبب ما اعتقدت أنها فتاة أحلامي وتوأم روحي وغيرها من الترهات، فقلت للرجل:

- "لا مشكلة في الانتظار؛ نعقد الخطبة الآن وأنتظرها"

قال أبوها مصرًّا:

- "أنت تعرف كم هي صعبة كلية الهندسة، ولا يمكنني أن أقبل بأي شيء يشغلها عن دراستها؛ لن أتحدث في الأمر قبل أن تتخرج. خرجت من عندهم وأنا أمنّي نفسي أن تلك الأعوام الثلاثة ستمر سريعا؛ شغلت نفسي بالعمل ومتابعة الكورسات على اليوتيوب؛ تعلمت اللغة الإنكليزية وعلم النفس وإدارة الأعمال... "

صاح القاضي مقاطعا:

- "هل ستخبرنا قصة حياتك كلها؟"

قلت بهدوء:

- "فقط الأجزاء المهمة..."

واصلت وأنا أطالع الحضور وكاميرات الفضائيات من حولي:

- "... بعد فترة بدأ يتجنب إجابة اتصالاتي، وعندما يجيب يكون نفس الرد؛ يطلب مني ألا أتكلم في الأمر إلا عندما تتخرج. فكرت بالذهاب إلى بيتهم أو الحديث معها ولو قليلا، لتتعرف على شخصيتي، فتدرك أنني فتى أحلامها كما هي فتاة أحلامي، لكن خشيت أن يغضب أبوها ويرفض الأمر تماما، أو يعتقد أنني شخص تافه لا عمل له سوى ملاحقة ابنته، أو أن حياتي متوقفة على خطبتي لها؛ بالفعل كانت حياتي شبه متوقفة، حتى أنني كنت أتنقل

بين الوظائف الصغيرة وأطرد من عملي كثيرا، ولم أكن أفكر إلا في فتاة أحلامي واللحظة التى ستكون بها معي وفي بيتي. مر عام كامل ثقيل، وذات يوم استجمعت شجاعتي وذهبت إليهم؛ قابلني عند الباب وكرر نفس الكلام عن أنه لن يفتح الموضوع ولن يسمح لها بمعرفة أي شيء عني، حتى تنهي دراستها..."

صاح أحد المستشارين:

- "هل يمكن أن نصل إلى اليوم الذي تَخَرَّجتْ فيه وقمت بجريمتك؟"

- "بالتأكيد، سأخبرك عن اليوم الذي تخرجت فيه، لكن جريمتي لم تحدث في نفس اليوم ولا حتى قريبا منه"

أشار إليَّ القاضي بيديه أن أسرع، فقلت:

- "فور معرفتي بانتهاء الامتحانات الجامعية، ارتديت ملابسي وتجهزت واشتريت الهدايا وهممت بالذهاب، لكن تراجعت في اللحظة الأخيرة، فقد يطلب مني الانتظار حتى تظهر النتيجة ، ويتأكد أنها نجحت في كل المواد؛ كبحت نفسي وانتظرت شهرين كاملين، وأنا أدعو كل يوم أن تكون قد نجحت بتقديرات مرتفعة في جميع المواد..."

سكتُّ عن الكلام للحظات، فقال القاضي:

- "لماذا توقفت؟ ما الذي حدث بعد ذلك؟!"

شرد ذهني قليلًا. طالعت الصحفي الجالس قبالي، يسجل كل ما أقول. كنت أبحث عن كلمات مناسبة لوصف ما حدث. أفلتت مني ابتسامة وأنا أتذكر سذاجتي، وفي النهاية فتحت فمي وقلت ببساطة:

- "تقدم أحد زملائها لخطبتها ووافقت..."

لا أعرف لماذا شعرت لوهلة كأن الموقف وقع منذ وقت قريب. أكملت كلامي:

- "...وبالطبع وافق أبوها وأمها لأنه شاب متفوق وحالته المادية جيدة. عندما سمعت بالخبر جن جنوني، وانطلقت أركض حتى بيتها. واجهت أبيها بما كان بيننا، فأخبرني بكل برود أنه لم يطلب مني الانتظار وتعطيل حياتي، كما أن فارق العمر بيني وبينها كبير ولم يكن الأمر لينجح بالأساس، ثم التف بوجهه طالبًا مني الرحيل. صرخت به حتى خرجت زوجته وابنته؛ وقفتُ أمامها وأخبرتها أنني رجلها المثالي وأنه لا أحد قادر على إسعادها سواي"

لم تكن تعرف عني شيئا، ولم تكن حتى قد رأتني قبل ذلك. رمتني بنظرة شفقة. تجاهلت نظرتها وقلت متوسلًا:

- "أرجوكِ فكري في الأمر ولو قليلا."

تحولت ملامح وجهها إلى الغضب، وقالت، بينما يسحبني أبوها ليلقي بي خارجا:

- "ومن أنت حتى أفكر فيك؟!"

أدركت حينها أن حياتي قد انتهت بالفعل؛ تلك الأعوام الثلاثة الماضية كان بإمكاني فعل الكثير فيها، لكنني لم أفعل شيئا سوى الانتظار. قررت الانتقام؛ قررت قتل الرجل الذي حرمني حياتي؛ لقد علمتني تلك الفترة الصبر، فبدأت أتربص به حتى عرفت حركته اليومية والأماكن التي يتردد عليها، وتبعته بينما كان يسير وحيدا ذات ليلة واقتربت من خلف ظهره بخفة ورفعت سكيني الحاد، ولكن جمدت يدي في الهواء، لما خطر ببالي أنه إذا مات سيرتاح، وهو ما لا أرضاه له، وأيضا ستكون فتاة أحلامي مع رجل آخر. انسحبت بسرعة وعدلت عن خطتي؛ لقد حرمني هذا الرجل ابنته وجعلني أشعر بالندم على الوقت الذي انقضى من عمري، لذا علي أن أحرمه ابنته وأجلعه يشعر بنفس الندم. في البداية قررت قتلها مباشرة، لكنني

رأيت أن أنتظر حتى ليلة الزفاف، ليشعر هو وزوج ابنته بالمعاناة وتكرهه زوجته، لأنه السبب في كل ذلك.

التفتُّ إلى حيث يجلس الأب، بين الحضور، بجانب زوجته يطالع وجهي بخوف. أبعدت نظري عنه بلا مبالاة. أكملت كلامي:

- "مر عامان وأنا أنتظر؛ تعلمت خلالهما الكثير، وجمعت مالًا كثيرًا من مشروعات متعددة، فقد اكتشفت أنني موهوب في جني الأموال، لكن رغم نجاحي الكبير في وقت قصير جدا، لم يكن ذهني منشغلا بالتجارة أبدا. كان لدي هدف واحد، وسأدركه مهما طال العمر"

في النهاية، علمت أنه تم تحديد موعد الزواج وحجز القاعة، وفي الليلة المنتظرة، اندسست بين المدعوين. اخترت بقعة مناسبة في مكان بين بضع شجيرات، يمكنني منه اقتناصها بسهولة. أخرجت سلاحي الصغير الذي تدربت عليه لمدة أربعة أشهر في أكبر نوادي تعليم الرماية. لقمته وبدأت أحدد الهدف بدقة؛ قلبها الصغير الذي لا يمكن أن أسمح بأن يكون لغيري. وقبل أن أضغط الزناد، لمحت زوجها يطالع بطرف عينه الرائحات والغاديات من الحضور، فأدركت أنها مجرد زيجة أخرى من تلك الزيجات التي ستنتهي بالطلاق بعد ثلاث إلى خمس سنوات، والتي تحفل بدراستها كتب علم نفس العلاقات. أعدت سلاحي إلى مكمنه، فقتلي لها الآن، يعني أن والدها سيحزن ويندم، أما زوجها فسينسى أمرها فور أن يتزوج بغيرها. أما قتلي له فلن يجدي نفعا، لأن تأثيره سيكون عليها هي أكبر من تأثيره على أبيها، والذي سينسى كل شيء بمجرد أن يلقي بها إلى رجل آخر ليتزوجها. ليس لديَّ سوى فرصة واحدة؛ عليَّ أن أخطط لهدفي بدقة وعناية؛ عليَّ أن أصطاد جميع العصافير بحجر واحد؛ قررت أن أعدل خطتي من جديد، وللمرة الأخيرة.

اختلست نظرة سريعة إليها وهي تجلس بجوار أبيها وأمها وعيناها الخضراوان مغرورقتان بالدموع حزنًا، لكن ليس من أجلي، بل من أجل ابنها. قال القاضي:

- "أمامك خمس دقائق بالضبط، حتى تخبرنا كيف دخلت إلى المدرسة وقمت بجريمتك وسط صراخ الأطفال؟"
- "السؤال ليس كيف؛ فهي مدرسة حكومية وهناك ألف طريقة لدخولها، والخروج منها أيضا، بل السؤال الصحيح هو لماذا دخلت!"

أبعد نظاراتيه وأشار إلى الساعة في يده محذرا، بدأت بالتكلم من جديد:

- "بعد قليل من التفكير قررت أن أنتظر حتى يولد لهما مولود، لأحرق قلبهما عليه، فلا ينسيا الأمر أبدا، ولا تتمكن من مسامحة أبيها لما فعله كونه هو السبب. بعد عام ونصف أنجبت ولدًا صغيرًا اسمته حمزة، كان له نفس لون عينيها. كنت موجودا في المشفى وقت ولادته، حتى أنني أنا من استدعيت طبيب الطوارئ في تلك الليلة عندما كاد أن يختنق بجوارها وهي نائمة. ما كان لأكثر القلوب قسوة وحقدًا أن يقتل رضيعًا أو يأخذه من بين يدي أمه، فقررت أن أراقبهم حتى يتحول للسن الذي يمكنني فيه أن أعاقب به جده وأمه. بعد عامين ونصف من ميلاده، رحل أبوه بعد أن طلق أمه وتركها مع رضيع لم يبلغ الثانية. لم يهتم حتى بالإنفاق عليهما؛ سافر ليعمل مهندسا لشركة بإحدى دول الخليج، ونسي أن له ابنًا. عادت إلى بيت أبيها، لأنها لم تتمكن من دفع الإيجار وإعالة الولد بمفردها. أما أبوها فقد أحيل للمعاش وأصبح، بالكاد، بإمكانه فتح بيته. لم يتقدم أحدٌ للزواج بها، فقد كانت أمًا مطلقةً. قررت أن أضيف جزءا بسيطا على خطتي الانتقامية؛ علي أن أحافظ على الولد وأرعاه لينشأ نشأة جيدة، كي يكوي الحزن قلوبهم، عندما أحرمهم منه"

بدأت بإرسال مبلغ شهري لهم، وحتى لا أثير تساؤلاتهم، كنت أرسله باسم طليقها في الخليج. فكرت قليلًا في الكلمات التالية، ثم قررت أن أتكلم. قلت:

– "مرت الأيام حتى أنهى الولد المرحلة الابتدائية، فقررت أن أقتله..."

سرت الهمهمات بين الحضور وتعالت الأصوات في القاعة. تجاهل القاضي الضوضاء المحيطة وصرخ بي:

– "لكنك لم تقتله، كما أنه لم يكن معك أي سلاح، فماذا كانت خطتك تحديدا؟!"

نظرت إلى "حمزة" وهو جالس في حجر جدته يطالعني وجسده يرتعد من الخوف، فواصلت بلا تردد:

– "لقد كانت الخطة أن أدفعه من الدور العلوي"

قال القاضي باستنكار:

– "وبدلا من ذلك دفعت طفلة بريئة لتقع جثة هامدة؟"

نحبت أم الطفلة المثكولة من جديد وربت زوجها على كتفها. قلت بهدوء:

– "لقد أخطأت، ودفعت الشخص الخطأ، وكل من في المدرسة رأوني وأنا أقف في الدور العلوي بعد أن حدث ما حدث"

– "هل تعلم أن اعترافك، لن يغير شيئا ولن يخفف الحكم؟ لأنها جريمة ثابتة ومسبوقة بإرصاد وتخطيط!"

قلت:

– "في الحقيقة، أنا أطالب بإيقاع عقوبة الإعدام عليَّ، وأيُّ عقوبة أقل من ذلك ستعد تهاونا من القضاء الشامخ مع مثل هذا النوع من الجرائم البشعة،

ويصبح بإمكان كل من هب ودب أن يدخل إلى مدارسنا ويقتل أطفال الوطن الأبرياء"

تفحصني القاضي بحيرة، ثم قال وهو يُنَقِّل بصره بين كاميرات مصوري الجرائد والمحطات الفضائية:

- "الحكم بعد المداولة!"

ما أن اختفى القاضي ومستشاراه، حتى ركض "حمزة" نحو القفص وأمه من خلفه. همس قائلا:

- "لماذا لم تخبرهم الحقيقة؟"

- "أخبرهم بماذا؟"

- "تخبرهم أنني أنا من دفعتها، لأنني رأيتها مع ولد آخر بعد أن قالت أنها تحبني، ثم نخبرهم أنني كنت أدفعها فقط، ولم أقصد أن تموت أبدًا"

وضعت أمه يدها على فمه، وأشارت له بالتزام الصمت وهي تتلفت حولها. قلت:

- "لا فارق؛ في كلا الحالتين ستضيع حياتك... وأنت لا تزال صغيرًا"

- "وأنت ألن تضيع حياتك؟"

- "لقد ضاعت حياتي بالفعل؛ حين وافقت على الانتظار من أجل فتاة..."

نظر إلى أمه بغيظ، فقالت مدافعة عن نفسها:

- "أنا لم أعرف شيئا مما حكيتَه الآن؛ فقط أذكر أن شخصا تقدم لخطبتي منذ عدة سنوات، وتشاجر مع أبي، لكن لم أعرف أنك ضيعت حياتك كل هذا الوقت من أجلي... لو أنني عرفتك حينها، لربما..."

قاطعتها:

- "من أجلك؟ ومن أنتِ حتى أفكر فيكِ؟! لقد أردت أن أتأكد أن هذا الصغير لن يصبح مثلكم عندما يكبر..."

التفتُّ إليه وقلت:

- "حمزة! لقد ضحيت بحياتي من أجلك، ولا أطلب منك في المقابل إلا أن تتعلم الدرس جيدا؛ الفتيات لا يستحققن التضحية بدقيقة من أجلهن؛ لا توجد فتاة مثالية ولا غيره؛ كلهن متشابهات. وصدقني، المتعة التي تشعر بها عند الحديث معهن والاقتراب منهن، لهي متعة زائفة، يمكنك أن تحصل على متعة أكبر منها بالتنافس مع أصدقائك، أو قيادة السيارات المسرعة، أو الركض حتى تنقطع أنفاسك؛ كل شيء أفضل من الفتيات"

هممت بالرجوع للخلف، فأمسك بيدي وقال:

- "هل حقا كنت في المدرسة هذا اليوم لقتلي؟"

مسحت دموع عينيَّ بظهر يدي بخفة وقلت:

- "منذ اللحظة التي رأيت فيها أبيك، أدركت أنه سيترك أمك عندما يجد أجمل منها، أو يشعر بالملل؛ انعاكاساته النفسية على تصرفاته، وطبيعة شخصيته توحي بأنه من هذا النوع. تمنيت أن يتركها قبل أن تحمل منه، لكن لم يكن بيدي حيلة، لأمنع هذا. فقررت أن أعدل من خطتي للمرة الأخيرة؛ سأنتظر حتى يتركها وإذا كان هناك طفل بينهما، سأرعى هذا الطفل، حتى لا يغدو على شاكلتهم. وقد ذهبت إلى المدرسة في هذا اليوم، حتى أخبرك أنني من طرف أبيك، وأتحدث معك قليلا، كي أعرف هل ورثت شيئا من خصالهم، فرأيتك تتشاجر مع تلك الفتاة وتدفعها. حاولت أن أوقفك، لكنني وصلت متأخرا"

كان يطالعني وفي عينيه نظرة لم أعرفها من قبل. ألقى بذراعيه حولي من خلال القضبان وقال:

– "لا أعرف إذا كنت لتصبح زوجا جيدا أم لا، لكنني متأكد أنك أب مثالي"

●●●

صدر للكاتب

- أنا مرارة واتفقعت
- الآنسة فوزية
- بنسيون الخفافيش
- حلا وغطاها
- دار نشط عصير القصب
- ذئب وحفنة ذئاب
- راس في الطين (عن قصة راسبوتين)
- سلسلة وظهر البطل
- عملية نقل عقل
- عودة بابا
- كوخ الأساطير
- اللعنة والفراعنة
- ملك مملكة البسلة
- مليونير لفترة محدودة (شوكولاتة بالبندق)
- هل تعرف أم النحس
- الوقوع في الحب